هل النحو العربي في حاجة إلى التيسير ؟ (1)

التواتي بن التواتي

جامعة الأغواط

الملخص

يدور المقال حول قضية الدعوة إلى تيسير النحو، والمراد من التيسير هنا هو تبسيط الصورة التي تعرض فيها القواعد على المتعلم؛ أي التبسيط في كيفية تعليم النحو لا في النحو نفسه لأنه علم محض، ولا يعقل حذف بعض قوانينه وعلله. وقد تعسف المتأخرون في التعليل ولكن هذا غير وارد أبدا بالنسبة للمتقدمين، فإن جل ما أثبتوه قد أقره العلم الحديث بالاختبار في المختبرات والاستدلال الحاسم.

ولمناقشة قضية تيسير النحو حددنا المراحل التي مرت بها دعوة الإصلاح والتجديد قديما وحديثا والمواضيع التي اعتراها النقد، والذين تعرضوا للنحو العربي بالنقد تناولوه من خمسة جوانب كانت محل خلاف بين النحاة قديما وحديثا وهي:

1 - أسلوبه وعرضه وتقديمه للطلاب.

2 – منهجه وطرق عرضه والغلو في مزجه بالفلسفة.

3 – حده أي موضوع علم النحو بالذات.

الكلمات المفاتيح: تيسير النحو – النحو العربي– القواعد النحوية – تعليم النحو– النحو العلمي.

Résumé

L'article est axé sur le problème de la simplification de la grammaire arabe, ce qui signifie que l'on se doit de faciliter la présentation pédagogique des règles grammaticales à l'apprenant, sans apporter aucun changement par l'auteur à la grammaire qui constitue l'ossature de la langue et qui, par conséquent, ne tolère aucune modification au niveau de ses règles.

Cela a été confirmé par les recherches et contredit scientifiquement la prétention de nos contemporains qui conçoivent la simplification de la grammaire comme une modification de ses règles.

Afin de débattre de ce sujet, nous avons déterminé les anciennes et récentes étapes par lesquelles est passé le mouvement de la réforme de la grammaire et le renouvellement de cette dernière.

Sujet de controverse entre les grammairiens dans le passé et le présent, les points suivants ont été soulevés par la critique selon:

-Le style de la grammaire arabe et sa présentation aux étudiants.

-La démarche suivie par les grammairiens ainsi que la méthode d'analyse de la grammaire et la confusion avec les analyses de la philosophie.

-La définition de la grammaire et par conséquent son objet en tant que discipline scientifique.

Mots-clés: Simplification de la grammaire - grammaire arabe – règles grammaticales – l'enseignement de la grammaire – grammatologie.

Abstract

The present paper deals with the simplification of arabic grammar; this latter, means facilitating the way by which the grammatical rules are taught to the learner, without changing any changes to grammar itself, which is a pure science that excludes any modification of its rules. This has been attested by both the ancient grammarians and the modern science as opposed to the contemporary grammarians who tend to simplify grammar itself.

To discuss this subject, we have determined the ancient and recent steps of the claim to reform and renewal and debated the main points that have been the subject of controversy between the grammarians in the past and present; such as:

- Arabic grammar style and its presentation to the students.
- The method of arabic grammar analysis and the confusion that is made with the analyses of philosophy.
- Arabic grammar definition and thus, its subject matter as a scientific branch.

Keywords: simplification of arabic grammar - grammatical rules – the science of grammar – teaching grammar.

نشأة النحو والأسس التي بنيت عليها قواعده

إنّ التمييز بين أطوار العلوم وأطوار نضوجها واكتمال مادتها ووسائلها المعتمدة يحتّم علينا أن نستعرض المراحل التي مرّ بها علم النحو كعلم من سائر العلوم حتى وصل إلى درجة النضوج فنقول: نشأ هذا العلم في رحاب القرآن الكريم وقراءاته وكانت بدايته أولية شأنه شأن كلّ عمل ناشئ لكنّ بدايته كانت بداية علمية حقيقية اتصفت مناهجها بما هو لازم لكلّ منهج علم: المشاهدة الموضوعية للأحداث، والاستنباط الاستقرائي للقوانين، والتحليل الرياضي الكاشف عن أسرار الظواهر.

والدليل على هذا فكرة الاستقراء وتصفح الظواهر اللسانية العربية من خلال النص القرآني وكلام العرب (شعرا ونثرا وحكما وأمثالا) واستنباط قوانين العربية وحدها واختراع نظام من الرموز لضبط نص القرآن وتصحيح قراءاته (ونعني: نقط المصحف الشريف وشكله) [1].

كان لاهتمام علماء العربية بالبحث في مسائل النحو في أواسط القرن الأوّل الهجري دوافع منها ظهور اللحن، والحفاظ على اللغة العربية من الضياع، وتقريب نص القرآن قراءة وفهما من الناس فراحوا يستنبطون قواعد اللغة العربية من مضامينها الأساسية (قرآن وقراءات وكلام العرب) – كما ذكرنا– وساروا في ذلك سيرا حثيثا، وما أن كان القرن الثاني للهجرة حتى ظهر عالمان هما: الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: 110هـ) وسيبويه (ت: 180هـ) جمع ما كان متناثرا من النحو البصري أطلق عليه منذ ظهوره اسم: "الكتاب" وهو أوّل مصنف في النحو شمل جميع أصوله وفروعه.

وأصبح سيبويه بعد تأليف كتابه علما من الأعلام وإمامَ كلِّ إمام في النّحو، فكتب النّحو كلّها منذ عهده إلى اليوم عيال عليه: إمّا إيضاحا وتفسيرا، وإمّا اختصارا لمادّته، وإمّا نظمه شعرا لتقريبه وتسهيله على الحفظ كما فعل ابن معطي حين نظم شواهده شعرا وقرب للأذهان قواعده نظما فأبدع في كليهما ولا نقول فَنَدًا إذا قلنا: إنّه أعجوبة الأعاجيب...! ونادرة النّوادر...![2]

---

[1] لقد أشبع موضوع نقط المصحف وشكله بحثا في رسالتنا المقدمة لجامعة الجزائر لنيل شهادة الدكتوراه.

[2] الكنوز الذهبية في شرح وإعراب شواهد سيبويه النظرية، حمدي علي مهدي، 1 / 71. وما بعدها .

وللكتاب – إلى كلّ ذلك – فضل عظيم فيما خلف من تراث ثقافي ضخم كان هو المحور فيه والباعث عليه، وذلك أنه لم يكد يظهر حتى أثار حركة علمية رائعة، وخلق تيارا فكريا دافقا تمثل فيما ظهر على مرّ العصور وفي شتّى الأقطار من مؤلّفات تتصل بالكتاب وتدور حوله.

ونحن لا نعرف أقدم منه كتابا يحوي آراء النّحاة الأوّلين كالخليل بن أحمد وعيسى بن عمر ويونس بن حبيب ولا أوْثق منه مصدرا للأدب العربي القديم بما نقل إلينا من شواهد ولا أحفل منه سجلاّ لكثير من العلوم العربية في فجر نشأتها بما ضمّه إلى النّحو من لغة وبلاغة وقراءات ولهجات.

يقول الزّبيدي عن فضل الكتاب: إنّي رأيت علماء النّحو في زماننا هذا وما قاربه قد أكثروا التأليف فيه وأطالوا القول على معانيه، فأملّوا النّاظرين وأتبعوا الطّالبين بتكرار معان قد بيّنت وركوب أساليب قد نهجت، فلم يحلّ أكثرهم بغير إعادة ما تقدّم إليه والتّكثير فيما سبق إلى القول عليه.

كان ينبغي لمَنْ همّ بذلك منهم أنْ يتصفّح كتاب عمرو بن عثمان المعروف بسيبويه فينظر إلى مبادئ كتابه وعنوانات أبوابه ويرى لطائف معانيه ودقائق حجاجه إلى الإيجاز في قوله والإيعاب لمواده فيزجره ذلك إن كان ذا حجى من تكلّف ما لا حاجة إليه، ويمنعه الاعتناء بما لا معوّل عليه[3].

وقد اعتنى به علماء العربية عبر الزّمان والمكان في العالم الإسلامي ولدى دارسي علم النّحو فتعدّدت شروحه من المشارقة والمغاربة نذكر منهم:

شراح الكتاب من المشارقة	شراح الكتاب من المغاربة
1- ابن السراج في سبعة أسفار	1- لأبي نصر هارون بن جندل مجلد
2- ميرمان في عشرة أجزاء	2- لأبي الحسن بن سيده شرح ذكره في المُحكَم
3- الرماني في سبعين جزء	3- لأبي الحجاج الأعلم شرح وله شرح الأبيات
4- المهلبي في عدة أجزاء	4- لأبي الحسن بن الأخضر عليه حواشي

[3] طبقات الزبيدي، ص: 2.

5- ابن ولاد في أجزاء كثيرة وله الانتصار ردّ على المبرد 6- السيرافي في أجزاء كثيرة 7- أبو علي الفارسي: حاشيتان أحدهما في ثلاثة أسفار وأخرى في سفر وله كتاب سماه المسائل المشروحة 8- ابن النحاس: وله شرح الديباجة والأبيات 9- الجرمي: وله شرح اللغات في سفر 10- المبرد: له ردّ على سيبويه 11- الأخفش الأوسط له حواش وهو صاحب الفضل في إظهار الكتاب وعن طريقه عرف [4].	5- لأبي الحسن بن الطراوة: كتاب سماه المقدمات 6- لابن خروف شرح عليه 7- للشلوبيين: شرح معروف 8- لابن الضائع: شرح جمع فيه شرح السيرافي وشرح ابن خروف 9- للحفاف السلجماسي شرح 10- لابن هود تلميذ ابن الطراوة شرح وهناك شروح أخرى، إذ أن الأندلسيين دأبوا على الاعتناء بالكتاب عناية فائقة وتنافسوا في شرحه [4].

يقول د/عبد السلام هارون – رحمه الله –... ومهما يكن فإنّ تعاقبَ الأجيال وتعاقب العلماء على خدمة هذا الكتاب وما حفظته دار الكتب من مخطوطات كتب النّحو، وما نشره العلماء من التّراث النّحوي، وما أثير حول الكتاب من مناقشات ومجادلات في مختلف الكتب العربية بل كتب الثّقافة الإسلامية، إنّ كلّ أولئك [يعدّ] ضرورة التّمرس بأسلوب الكتاب، وتعرف مصطلحاته يجعل من قراءة سيبويه متعة نافعة، ونفعا ممتعا ويضع أساسا للدراسات النّحوية المعاصرة [5].

وإذا رجعنا إلى كتب التراجم نجد ثلّة من العلماء يطرون الكتاب وصاحبه فأثنوا وما نظنّهم قد أعطوه حقّه كاملا. ولعلّه من المفيد أنْ نتعرّض لبعض مَنْ قرّضوا الكتاب وأطنبوا في مدح صاحبه. فقد عُرِف هذا المُؤَلّف منذ القدم باسم [الكتاب] أو كتاب سيبويه ومن المقطوع به تاريخيا أنّ سيبويه لم يطلق عليه اسما معيّنا على حين كان العلماء في زمانه ومن قبل زمانه يسمّون كتبهم بأسماء: كالجامع والإكمال لـ: عيسى بن عمر والعين المنسوب للخليل.

قد تكون هناك إشكالية أحاطت به منعته من التّسمية أو ظروف قاهرة حالت بينه وبين ذلك فالرّجل قد أعجله الموت وهو في سنّ العطاء، فلم يتمكّن من معاودة النّظر

---

[4] مقدمة محقق، الكتاب الدكتور عبد السلام هارون. وانظر البلغة في تاريخ أئمة اللغة، الفيروز أبادي.

[5] مقدمة كتاب سيبويه، د/عبد السلام هارون، ص: 32 .

فيه، فالملاحظ أنّ الكتاب ليس لـــه مقدّمـــة ولا خاتمـــة مـــع مكانتـــه العاليـــة وجـــلال قـــدره وإحكام بنائه. قد يعود هذا إلى طريقة عصـــر ســـيبويه فـــي التـــأليف وهـــذا ممكـــن جـــدا...! والثابت الذي لا مراء فيه أنّ سيبويه قد اختطفته يد المنون علـــى غـــرَّة وتـــرك كتابـــه القيّـــم الذي ملأ الدّنيا وشغل النّحاة قديما وحديثا. وقد أثنى علـــى ســـيبويه وقـــرَّظ الكتـــاب بكلمـــات كلّها إعجاب بالمؤلِف والمؤلّـــف.

1- يقول المبرد مقدّرا قيمة هذا الكتـــاب: إذ كـــان يقـــول لمـــن أراد أن يـــأخذ عنـــه كتـــاب سيبويه: هل ركبت البحر ؟ تعظيما واستصعاباً لمـــا فيـــه[6].

2- الجرمي (ت: 225هـــ) قال: "منذ ثلاثين ســـنة أفتـــي النّـــاس الفقـــه مـــن كتـــاب ســـيبويه" وعقّب المبرّد على هذا القول فقـــال: إنّ الكتـــاب يتعلّـــم منـــه النّظـــر والتفتيـــش. "قـــال أبـــو جعفر الطبري فحدّثت به المبرد على وجه التعجّـــب والإنكـــار فقـــال: أنـــا ســـمعت الجرمـــي يقول هذا – وأومأ بيديه إلى أذنيـــه-[7].

3- المازني (ت: 249هـــ): قال مستعظما الكتـــاب: "مَـــن أراد أن يعمـــل كتابـــا كبـــيرا فـــي النّحو بعد سيبويه فليستح ممّا أقـــدم عليـــه" [8].

4- ابن النّحاس (ت: 338هـــ): قال: "لم يزل أهـــل العربيـــة يفضلـــون كتـــاب ســـيبويه حتّـــى قال المبرد: لم يُعمَل كتابٌ فـــي العلـــوم مثـــل كتـــاب ســـيبويه وذلـــك أنّ الكتـــب المصنّفـــة في العلوم مضطرّة إلى غيرها، وكتاب سيبويه لا يحتـــاج إلـــى غـــيره" [9].

5- الأزهري (ت: 370هـــ) يقول عن سيبويه وكتابه: " له كتـــاب كبـــير فـــي النّحـــو وكـــان علامة حسن التصنيـــف" [9].

6- ابن جني (ت: 392هـــ): يقول عنه: وقد حطب (جمع) بكتابـــه وهـــو ألـــف ورقـــة [علمـــا مبتكرا] ووصفا متجاوزا لما يســـمع ويـــرى" [10].

---

[6] أخبار النحويين البصريين، ص: 39.

[7] مجالس العلماء، الزجاجي، ص: 251.

[8] خزانة الأدب، البغدادي، 371/1.

[9] تهذيب اللغة، الأزهري، 19/1.

[10] الخصائص، ابن جني، 212/3.

تعقيب:

وفي النّص السابق شهادة قديمة قريبة من عصر سيبويه أن النّحو [علم مبتكر] ابْتَكَرَتْه الحاجة إليه وليس بالضّرورة أن تُتَّبع أمم أخرى ؛ لأنّه من المجحف لأي أمّة من الأمم تحترم نفسها أن تقبل الزراية بعبقريتها وبعظمتها وعظمائها، ومن المذلّة أن تقبل الحطّ من قيمتها والعبث بأعلامها.

وإذا أردنا أن نستقصي آراء العلماء في ثنائهم على سيبويه وإعجابهم بكتابه لضاق بنا المجال ولخرجنا عن القصد المحدّد ولكن نكتفي بذكر: أنّهم أطلقوا اسم [الكتاب] عَلَمًا اختص به التصنيف دون بقية المصنفات الأخرى. فإذا أطلقت كلمة "الكتاب" فُهِمَ أنّ المراد هو كتاب سيبويه دون غيره بل إنّ صاحبه من فرط إعجابه بمؤلَفه وقيمته أطلق عليه [قرآن النّحو]. يقول السيوطي عن سيبويه: "وهو أعلم الناس بالنّحو بعد الخليل وألف كتابه الذي سماه [قرآن النّحو] وعقد أبوابه بلفظه ولفظ الخليل [11].

قد يكون هذا التّقريظ للكتاب وصاحبه يرجع إلى أنّ النحو قبل سيبويه لم يكن له صورة العلم ذي الأبواب والفصول والقواعد العامة، وإنّما كان مسائل متفرّقة لا تجمعها قاعدة ولا يضمّها باب جامع بل كانت ممتزجة بغيرها من مسائل اللّغة والأدب والتّفسير وفهم أشعار العرب ؛ فاستطاع كتاب سيبويه أن يجمع القواعد ويرتّبها، ويعقد أبوابا يجمع فيها أشقائها من المسائل النحوية. فاعتبر بذلك "الكتاب" أوّل كتاب لتدوين النّحو العربي وصل إلينا بهذه الصّورة الكاملة.

وترجع أهمية "الكتاب" العظمى عند الأقدمين لما حواه من قواعد نحوية نحتاج لتعلّمها على مرّ العصور حفاظا على اللّغة العربية وسلامتها كما أنّه في نظرنا يحوي تحليلا رائعا وإحساسا دقيقا بفقه اللغة وأساليبها وأسرار تراكيبها. فهو لا يسجّل أصول النّحو وقواعده فحسب وإنّما يلاحظ العبارات ويتأمّلها ويستنبط خواصها ومعانيها بما وُهِب من حسّ دقيق مرهف.

كما يُعَدّ شاملا لدراسة بعض الظّواهر المنسوبة إلى لهجات القبائل المختلفة، وما يتعلّق منها بالأصوات وبناء الكلمة وبناء الجملة ... ممّا يجده الباحث في أصول اللّغة

---

[11] المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، 405/2.

واللّهجات والأصوات، فلم يكد يترك ظاهرة من ظواهر التّعبير العربي إلا أتقنها علما وتحليلا [12].

ولا شك أنّ النّحو قد تطوّر بعد سيبويه – رحمه الله – فزادت عليه مسائل، ودخل عليه تنظيم أحسن، وتبويب أقوم وتقعيد أدقّ ؛ ولكنّه مع ذلك لم يخرج عن المنهج الذي رسمه سيبويه في استنباط الأحكام واستخراج المسائل، وتوضيح العلل. فالأجيال المتعاقبة لم تغير أسسه وقواعده، وإن غيّرت صوره وقوالبه وجعلته فضفاضا يتّسع لمختلف النّواحي كما نرى في كتاب [المقتضب] للمبرد، وشرح الكافية للرضي (ت: 684هـ) ؛ والأول من الكتب المتقدمة والثاني من الكتب المتأخرة، ولذلك مضى الناس يأخذون عن الكتاب جيلا بعد جيل وعصرا بعد عصر، حتى ملأ أسماع الدنيا وشغل العلماء بقواعده التي ظلت نجوما تجذبهم وتهديهم في مؤلفاتهم وبحوثهم: وفرق ما بينه وبين الكتب التي جاءت بعد عصره، كفرق ما بين كتاب [في الفتوى، وكتاب في القانون. فذاك يجمع جزئيات يدرسها ويصدر أحكاما فيها، والآخر يجمع كليات يصنفها ويشققها على الجزئيات.]

ولا ريب أن سيبويه قد انتفع بعلم الخليل ويونس انتفاعا ظاهرا كما انتفع بعلم شيوخه الذين نذكر منهم: حماد بن سلامة بن دينار البصري، الأخفش الأكبر، وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي عيسى بن عمر الثقفي البصري وغيرهم.

ولا عجب فيما أورده ابن النديم: "قرأت بخطّ أبي العباس ثعلب: اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنسانا منهم سيبويه والأصول والمسائل للخليل" [13].

وعلّق د/عبد السلام هارون على النصّ السابق فقال: "وليس يعني هذا النّص إلا أنّ سيبويه انتفع بجهود النحويين قبله الذين بلغ تعدادهم هذا القدر. وهذا النّص الذي قد يشعر بتنقيص سيبويه إنّما يعبّر عن حقيقة علمية حتمية. وهي أنّ كتاب سيبويه إنّما هو لقاح جهود النّحاة الذين سبقوه إذ لا يعقل أن يبتدع سيبويه هذا العلم المتكامل دون أن يفيد من تلك الجهود الأصلية التي

---

[12] سيبويه إمام النحاة، على النجدي ناصف، ص: 158–159 . وانظر العربية عبر القرون، ص: 35.

[13] الفهرست، ابن النديم، ص: 76.

رسمت كثيرا من أصول النّحو ومسائله ومقاييسه وعلله" [14]. ولا نراه يقدح في قيمته العلمية بقدر ما ينبئ أنّ الرّجل ثقة وأمين فيما يرويه عن شيوخه.

وهناك إجماع بين أهل العلم على أنّه لم يؤلّف كتاب مثله قبله وقلّ أن تجد في علم من العلوم أو لغة من اللغات كتابا ككتاب سيبويه يحتفظ بقيمته احتفاظ العلم أو اللغة به[15].

وبعد فما هي الأسس التي بني عليها هذا الميراث الضخم ؟ وما هي الدوافع التي دفعتهم إلى بذل هذا الجهد العظيم ؟ وهل وضعت على أسس صحيحة ؟

نقول: لما كان القرآن الكريم عربيا فقد جاءت لغته تعكس مراحل متفاوتة من التطور اللغوي للعربية، وقد أقرّ جميع العرب بأنّ لغة القرآن الكريم هي في أعلى درجة من البيان، واعتبروها قمّة في الفصاحة والبلاغة، وصاروا يقيسون درجة فصاحة اللغة بمدى قربها من لغة القرآن.

من المعروف أنّ أسلوب القرآن الكريم تميز عن لغة النثر كما تميز عن لغة الشعر فكان أسلوبا متميزا عما عهده العرب من قبل.

هذه الخصائص المميزة للغة القرآن جعلت الدراسات تكون تحليلية وصفية شاملة للعربية واستطاع الأعلام الأوائل تغطية الكثير من اللهجات العربية ولم يستبعدْ منها إلاّ ما كان أهلها متاخمين للحواضر وشاب لغتهم اللحن كما غطت الدراسات النحوية الكثير من القراءات المشهورة وحتى الشاذة منها كما سنبينه لاحقا.

وظهور كتاب سيبويه متضمنا قواعد العربية في صيغتها المكتملة والتي هي ثمرة جهود لأعلام جمعوا بين القراءة والنحو فكانوا قراء ونحاة في آن واحد وقد سبق أن ذكرنا أنّ الكتاب لم يكن جهد فرد واحد بل جهود الأعلام جمع علمهم سيبويه . ولما آل الكتاب إلى الأخفش "ميراثا من أستاذه" – لأنّه كان الطريق الوحيد للكتاب – تصدى لدراسته وأخذ يعلن مخالفته لبعض تعليلات سيبويه وفتح الأخفش الباب للكسائي لوضع قواعد على منهج يخالف المنهج الذي بناه سيبويه ومن سبقه، واقتفى الفراء أثر شيخه

---

[14] مقدمة كتاب سيبويه، د/عبد السلام هارون، ص: 34.

[15] الرماني النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه، د/مازن المبارك، ص: 132.

الكسائي فأكمل ما بدأه شيخه بوضع أطر علمية لأصول مذهب جديد، وبلورة مصطلحاته وبذلك كان النواة الأولى لنشأة مدرسة الكوفة.

ونشأ تنافس بين الأمصار الإسلامية وخاصة البصرة والكوفة وبغداد مما أحدث أثرا في حرص العلماء على استنباط الموضوعات واتساع المدونات النحوية، فأخرجت البصرة والكوفة في القرنين الثالث والرابع أعلاما من النحاة الذين خلفوا من ورائهم ثروة ضخمة من المؤلفات النحوية مازالت حتى اليوم لها قيمتها العلمية.

يقول د/حلمي خليل: وما من شك في أن التراث النحوي الذي تركه أسلافنا كان على درجة كبيرة من النضج بالنسبة لعصرهم وأن الجهد الخارق الذي بذلوه خلال الأزمة المتعاقبة جهد لم يتهيأ للكثير من العلوم المختلفة في عصورها القديمة والحديثة [16].

ويقول د/جعفر دك الباب: وبعد ذلك ازدادت عدد المسائل الصرفية والنحوية التي تطرق إليها الخلاف في الرأي وتشعبت، وظهر فيها آراء عديدة، واستفحل الأمر كثيرا، وأغرقت بعض التخريجات في الافتراضات التي ابتعدت باللغة عن وظيفتها الأساسية كوسيلة للاتصال ووصل الأمر إلى أن صار بعض الحكام يعقدون في مجالسهم مناظرات لغوية يتفكهون بها [17].

وأمام هذه الفوضى التي آل إليها النحو العربي برز أعلام عظام نهضوا به نذكر منهم: السيرافي الذي عمد إلى التأكيد على الجانب الوظيفي للغة، ثم ظهر مع أبي علي الفارسي اتجاه جديد يأخذ بما يراه صوابا بدون التقيد بمذهب معين، وسار على أثره تلميذه ابن جني وشعر أنه من أجل الخروج من هذا الوضع الذي وصلت إليه الدراسة النحوية المتخصصة يجب اكتشاف النظام العام للغة وراح في سبيل ذلك يبحث عن الأصول العامة للنحو فبحث في كتابه "الخصائص" في نشأة اللغات وأصوات العربية وعلاقة الكلم في العربية بأصواتها [18].

وجاء بعده علم آخر تابع السير في طريق اكتشاف النظام العام للغة مؤكدا

---

[16] التعريف بعلم اللغة، دافيد كريسل، تر: د/حلمي خليل، ص 120 (الهامش).

[17] مجلة الموقف الأدبي، مقال للدكتور جعفر دك الباب، العدد: 117 يناير 1981.

[18] مجلة الموقف الأدبي، مقال للدكتور جعفر دك الباب، العدد: 117 يناير 1981.

على الوظيفة التي تؤديها اللغة فكان كتابه "دلائل الإعجاز" بداية مرحلة جديدة في تاريخ علم العربية واشتمل على نظرية عامة في اللغة ووظائفها، وواصل الزمخشري الدّراسة الوظيفية للغة التي بدأها عبد القاهر الجرجاني فجاء كتابه المفصل في علم العربية نموذجا للدراسة اللغوية الوظيفية، وقد عمّق ابن يعيش ذلك المنحى الوظيفي للغة في شرحه المفصل.

تلكم هي المسيرة الكبرى في بناء هذا الصرح العظيم والدراسات النحوية المتخصصة التي تنمّ كلّها أنّ هذا العلم نضج وما احترق، ولا زال هناك مجال للدراسة الجادة لكلّ من أنس في نفسه القدرة في إضافة لبنة إلى البناء بدون أن يغمط لغيره حقّا ولا يبخس له شيئا وقد نهينا شرعا على ذلك قال الله تعالى: (ولا تبخسوا الناس أشياءهم).

وما يعاب على المحدثين الإفراط في الإعجاب بما لدى الغربيين من جديد والسير في ركابهم واقتفاء أثرهم والأخذ عنهم ولو كان عندنا ما هو أحسن وأجود، فنتج عن ذلك دراسات مبتورة لا تنم عن نهج أصيل، ولا عن علم غزير يبوّئ صاحبه الريادة، وإنما يعطي انطباعا عن تبعية وتقليد أعمى، وقد تكون عند البعض نزعة مرضية منشأها حالة نفسية تدفع صاحبها إلى المخالفة من أجل المخالفة (أي: من باب خالف تعرف فحسب) وهذا خطر على اللغة وعلى الدراسات اللغوية وخاصة وأنّ اللغة ليس لها ما يحميها من الدراسات العابثة غير الجادة والآراء الطفيلية التي تهدم ولا تبني وتعيب ولا ترشُد وتنقد ولا تصحح وغيرها من العيوب والأمراض التي يجب الانتباه إليها.

إنّ الدعوة إلى تيسير النحو يجب أن ننظر إليها بحذر ونرقبها بتبصر ونكون منها على خوف ووجل وعلى بيّنة في دوافعها وغايتها، فإذا كانت هذه الدعوة إلى إعادة النظر في طرق عرضه وتبليغه إلى الناشئة بطرق أكثر ملاءمة لجو العصر، وكانت تمسّ الشكل لا المضمون وتتعلّق بالطرق البيداغوجية فنحن معها ونناصرها ونؤيدها وندعو لها ونشد على أيد الداعين لها، فهي دعوة مقبولة.

يقول العلامة الكبير د/عبد الرحمن الحاج صالح مستنكرا على دعاة التبسيط دعواهم: كيف يبسط النحو وهو القانون الذي بني عليه اللسان ! ولا شك أنّهم أرادوا

تبسيط الصورة التي تعرض فيها القواعد على المتعلم فعلى هذا ينحصر التبسيط في كيفية تعليم النحو لا في النحو نفسه لأنه علم محض وهل يعقل أن يجحف بالعلم بحذف بعض قوانينه وعلله ؟ نعم قد تعسف المتأخرون في التعليل ولكن هذا غير وارد أبدا بالنسبة للمتقدمين، فإن جل ما أثبتوه قد أقره العلم الحديث بالاختبار في المختبرات والاستدلال الحاسم، ومهما يكن من أمر فإن الخطأ قائم إذ لا يميز هؤلاء المصلحون بين ما هو عام – ينبغي أن يكون معقدا وتلك هي طبيعته – وبين ما هو تطبيق له وينبغي أن تكون ثمراته سهلة المنال أو على الأقل أن تناسب طبيعة القطاع من النشاط الإنساني الذي يجري فيه [19].

أما إذا كانت دعوة إلى نبذ كل ما هو قديم وتحامل وتقزيم لنحاة أعلام والازدراء بهم والحط من شأنهم من باب خالف تعرف وسير وراء المناهج الغربية واقتفاء أثرهم الحافر على الحافر حتى لو دخلوا جحر ضب لدخله هؤلاء "دعاة التيسير" فإنها دعوة باطلة مضلة ظاهرها الرحمة وباطنها عذاب أليم . هدفهم هو ما قاله أستاذنا العلامة د/عبد الرحمن الحاج صالح: "وقد أدى بعض معاصرينا إلى الطعن فيما تركه لنا العلماء العرب حتى الأولون الفطاحل منهم. فحاولوا أن يستبدلوا أوضاع النحو القديم بشيء تافه استعاروه من النحو التقليدي الأوربي (وما استبدلوا في الواقع إلا مصطلحا بآخر يقل عنه قيمة ومدلولا)" [20].

ولمناقشة هذه الدعوة حددنا المراحل التي مرت بها دعوى الإصلاح والتجديد قديما وحديثا والمواضيع التي اعتراها النقد فنقول: إن الذين تعرضوا للنحو العربي بالنقد تناولوه من خمسة جوانب:

1- من حيث أسلوبه وعرضه وتقديمه للطلاب.

2-ومن حيث منهجه وطرق عرضه والغلو في مزجه بالفلسفة.

3-من حيث حده أي موضوع علم النحو بالذات .

4- نظرية العامل وموقف ابن مضاء الأندلسي والدارسين المحدثين منها.

---

[19] مجلة "اللسانيات " العدد الرابع سنة 1974/1973 ص: 22 (الهامش) .

[20] مجلة "اللسانيات" العدد الرابع سنة 1974/1973 ص: 22 (الهامش).

تبسيط الصورة التي تعرض فيها القواعد على المتعلم فعلى هذا ينحصر التبسيط في كيفية تعليم النحو لا في النحو نفسه لأنه علم محض وهل يعقل أن يجحف بالعلم بحذف بعض قوانينه وعلله ؟ نعم قد تعسف المتأخرون في التعليل ولكن هذا غير وارد أبدا بالنسبة للمتقدمين، فإن جل ما أثبتوه قد أقره العلم الحديث بالاختبار في المختبرات والاستدلال الحاسم، ومهما يكن من أمر فإن الخطأ قائم إذ لا يميز هؤلاء المصلحون بين ما هو عام – ينبغي أن يكون معقدا وتلك هي طبيعته – وبين ما هو تطبيق له وينبغي أن تكون ثمراته سهلة المنال أو على الأقل أن تناسب طبيعة القطاع من النشاط الإنساني الذي يجري فيه [19].

أما إذا كانت دعوة إلى نبذ كل ما هو قديم وتحامل وتقزيم لنحاة أعلام والازدراء بهم والحط من شأنهم من باب خالف تعرف وسير وراء المناهج الغربية واقتفاء أثرهم الحافر على الحافر حتى لو دخلوا جحر ضب لدخله هؤلاء "دعاة التيسير" فإنها دعوة باطلة مضلة ظاهرها الرحمة وباطنها عذاب أليم . هدفهم هو ما قاله أستاذنا العلامة د/عبد الرحمن الحاج صالح: "وقد أدى بعض معاصرينا إلى الطعن فيما تركه لنا العلماء العرب حتى الأولون الفطاحل منهم. فحاولوا أن يستبدلوا أوضاع النحو القديم بشيء تافه استعاروه من النحو التقليدي الأوربي (وما استبدلوا في الواقع إلا مصطلحا بآخر يقل عنه قيمة ومدلولا)" [20].

ولمناقشة هذه الدعوة حددنا المراحل التي مرت بها دعوى الإصلاح والتجديد قديما وحديثا والمواضيع التي اعتراها النقد فنقول: إن الذين تعرضوا للنحو العربي بالنقد تناولوه من خمسة جوانب:

1- من حيث أسلوبه وعرضه وتقديمه للطلاب.

2-ومن حيث منهجه وطرق عرضه والغلو في مزجه بالفلسفة.

3-من حيث حده أي موضوع علم النحو بالذات .

4- نظرية العامل وموقف ابن مضاء الأندلسي والدارسين المحدثين منها.

---

[19] مجلة "اللسانيات " العدد الرابع سنة 1974/1973 ص: 22 (الهامش) .

[20] مجلة "اللسانيات" العدد الرابع سنة 1974/1973 ص: 22 (الهامش).

5- العلل الثواني والثوالث في النحو أو ما يسمى بالعلل النحوية تلكم هي الجوانب الخمسة التي مسّها النقد وكانت محلّ خلاف بين النحاة قديما وحديثا.

قبل مناقشة هذه الجوانب نشير أنّ النحو العربي قد شابته شوائب بعضها يتصل بالمنهج وبعضها أو كثير منها تتصل ببعض القضايا الجزئية وخاصة فيما طرأ عليه في القرون الأخيرة حتى أصبحت بعض كتبه ألغازا وأحاجي ممّا أمضّ الباحث وأتعب المتعلم. ومع ذلك فإنّ هذا لا يقلل مطلقا من عمل النحاة القدماء وبجهد الذين توافروا على دراسة هذه اللغة بهمة لا تعرف الكلل وبجهد جدير بالإعجاب.

الجانب الأوّل: حزونة أسلوب عرضه والغلو في إبهامه

كانت الدعوات إلى الإصلاح والتجديد في النحو تختلف تبعا لاختلاف الدوافع التي كانت تدفع أصحابها إليها والتقدم الفكري الذي يلابس العصر الذي فيه يعيشون بالرغم من أنّ نظام قواعد العربية بناه نحاة العربية على أساس الرواية اللغوية فظهرت الدعوة الأولى بالشكوى من غلو النحاة في التعقيد والإبهام وفي فلسفة النحو ومَنْطَقَتِهِ ... الخ.

روي أنّ الأخفش كان يُغْرِبُ في أسلوبه لدرجة أن يجعل ما يكتبه غير مفهوم، ولامه الجاحظ على ذلك لوما شديدا ودعاه إلى تبسيطه فكان جوابه: "أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله وليست هي كتب الدّين ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه قلّت حاجتهم إليّ فيها، وإنّما كانت غايتي المنالة وما كسبت إلا في هذا التدبير إذ كنت إلى التكسب ذهبت" [21].

وهنا فإنّ الرّجل كان صريحا في الهدف من تعقيد أسلوبه وحزونته فإنّه يريد المقابل ولا ضير في ذلك . وأيّ عيب في هذا ؟ ما دام الرجل يتحكّم في ناصية العربية، متعمّقا في علومها ولعلّ رواية ثعلب تنبئ عن المقصود.

قال ابن الخياط النّحوي البغدادي منتقدا كتاب "المسائل الكبير" للأخفش: ويحك صاحبك هذا مجنون يتكلّم بما لا يفهم". فأجابه ثعلب: "هذا رجل اشرف على بحر فهو يتكلّم منه ما يريد" [22].

---

[21] الحيوان، الجاحظ، 91/1.

[22] طبقات النحويين واللغويين، ص: 74.

هذا التعقيد دفع الكثير من النحاة لمعالجته درسا وشرحا لإزالة هذه الحزونة ودراسة تحتويه من الوعورة حرصا على توضيحها وإبانة مقصودها. فهذا المبرد تناول كتاب [الأوسط] فألف كتابا سماه: "معنى كتاب الأوسط للأخفش" وهذا الكتاب المهم هو آخر ما استقر عليه الأخفش من الآراء، لأنه الكتاب الذي عاد فيه إلى موافقة سيبويه في عدد من أقواله التي كان قد خالفه فيها من قبل، والذي نص فيه على أن ما عاد إليه آخر قوليه[23]. ومازال يحيط عن مكنوناته، فانصرف بدوره إلى شرحه مرة أخرى وإلى تجليته في صورة واضحة لا لبس فيها ولا التواء.

الجانب الثاني: المناهج النحوية وطرق العرض والغلو في مزجه بالفلسفة

1- تمثلت فيما نقد به أبو علي الفارسي أبا الحسن الرماني من قوله: "إن كان النحو ما يقوله أبو الحسن الرماني، فليس معنا منه شيء، وإن كان النحو ما نقوله فليس معه منه شيء" [24].

2- فيما رواه بعض أهل الأدب فيما يروي أبو البركات بن الأنباري: "كنا نحضر عند ثلاثة مشايخ من النحويين، فمنهم من لا نفهم من كلامه شيئا ومنهم من نفهم بعض كلامه دون البعض ومنهم من نفهم جميع كلامه، فأما من لا نفهم من كلامهم شيئا فأبو الحسن الرماني وأما من نفهم كلامه دون البعض فأبو علي الفارسي وأما من نفهم جميع كلامه فأبو سعيد السيرافي[25].

هاتان المقالتان إذا لم تكونا دعوتين إلى التجديد وإعادة النظر في بناء النحو العربي على أسس جديدة، فهما شكوى وتذمر من غلو أبي الحسن الرماني في مزج عمله بالمنطق، وهو ما لم يستسغه الدارسون في القرن الرابع نفسه الذي طغت فيه الفلسفة والتزم الدارسون فيه حدود منهجها، وهما بعد ذلك لفت للرماني وغيره ما بين طبيعتي الدراستين من فرق ينبغي ملاحظته.

تعليق: إن مقولة الفارسي تحتاج إلى فضل شرح فنقول: لا يفهم من كلام الفارسي أنه

---

[23] البلغة في تاريخ أئمة اللغة، ص:

[24] نزهة الألباء، ص: 389 . ومعجم الأدباء، 74/14.

[25] نزهة الألباء، ص: 390-391.

يقصد إلى تجريد الرماني من معرفة النحوعامة، وإنّما يفهم أنّه أنكر عليه أسلوبه فيه، وإن مضمون قوله ليدلّ على أنّ للرماني نحوا ما، ولكنه غير النحو الذي هو عند الفارسي، وممّا يؤيد هذا المعنى أنّ أبا عليّ الفارسي وأصحابه كانوا يفضلون الرماني على أبي سعيد السيرافي.

وقول أبي عليّ الفارسي كان متوجها إلى نقد مذهب الرماني في النحو أكثر مما هو متجه إلى علم الرماني في ذاته وغلوه في استعمال المنطق، وهذا يجعلنا نورد تساؤلا للدكتور/عبد الفتاح شلبي "هل كان الرماني يستعمل المنطق في عبارته النحوية؟ وهل كان يمضي في هذه النزعة حتى لا يفهم الحاضرون من طلابه شيئا؟ وهل بلغ الغاية في ذلك حتى سبق الفارسي والسيرافي على تفاوت بين الأخيرين في هذه النزعة: توسطا عند أبي عليّ تجعل الطلاب يفهمون بعض كلامه دون بعض، وقلة أو عدما عند أبي سعيد تجعل الطلاب يفهمون بعض كلامه دون بعض وقلة أو عدما عند أبي سعيد تجعل الطلاب يفهمون منه جميع كلامه؟

قال: للإجابة عن هذه الأسئلة يجب أن نتصل اتصالا وثيقا بآثار كلّ من هؤلاء الأئمة في النحو ونقرأها قراءة فاحصة ثمّ نوازن بينها لنصدر في أحكامنا عن تصور ونهتدي في فهمنا بدليل.

وقال: وأقرر هنا أن الفارسي لم يقل النص الذي ذكره ابن الأنباري ليدلّ على مذهب الرماني في فلسفة النحو، فلم يكن الفارسي ليحفل بشيء من ذلك، فحديثه عنه من هذه الزاوية لا يعنيه في قليل ولا كثير ولا سيما إذا علمنا أنّ الفارسي نفسه من أصحاب المنطق في النحو إلى حدّ كبير فماذا أراد الفارسي بهذه العبارة ؟ أقول: إنّه أخرج هذه العبارة مخرج الآية الكريمة (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) وهو جلّ وعزّ يعلم أنّ رسوله المهتدي وأنّ مخالفه الضال[26].

والخلاصة إنّ أبا عليّ الفارسي قد أطلق جملة من الأحكام على عدد من النحاة كان الرماني والسيرافي منهم وأنّ الحكم الذي أطلقه على الرماني كان منصبا على مذهبه النحوي أو أسلوبه لا على نقص في مقداره من هذا العلم، فالفارسي يعترف

---

[26] الرماني النحوي، د/مازن المبارك، ص: 82-83 نقلا عن كتاب "أبو علي الفارسي"، د/عبد الفتاح شلبي، ص:588-612.

بنوع من النحو جعل أصحابه يفضلونه على السيرافي ولكنه ينكر أسلوبه النحوي، ويرى أن نحوه غير النحو الذي عنده وعند أصحابه وهو غيره لا في المادة وإنما في المنهج والطريقة وقد كان لكل منهما منهجه وطريقته[27].

الجانب الثالث: نقد حد علم النحو

مرت القرون وبدت اليقظة الحديثة ورأى الدارسون أنفسهم في عصر توافرت فيه عناصر الدرس الملائمة لطبيعة الدراسات المختلفة، وظهرت دراسات جديدة لم يعن القدماء بها، ولم يعرفوها كالنحو المقارن وعلم الاجتماع اللغوي وطبقت هذه الدراسات على نحو اللغات الأجنبية فنجحت في تجديده وإصلاحه إلى حد كبير، وهنا رأى بعض الدارسين المحدثين المتأثرين بالثقافة الغربية ومناهجها بضرورة محاكاة الغرب في إصلاح النحو العربي وتيسيره وتسهيله، وفات هؤلاء أن لكل لغة طابعها وطبيعتها وخصائصها ومميزاتها ... !

وقبل نقد هذه المحاولات النائلة من جهود نحاتنا نشير بإيجاز إلى أن المحاولة أكثر جدية في نظر أصحابها في إصلاح النحو وتجديده ودراسته من جديد في ضوء ما استحدث من مناهج غربية كما يتصوره أصحاب هذا الاتجاه تتجلى في محاولتين:

الأولى: محاولة إبراهيم مصطفى في كتابه "إحياء النحو".

الثانية: محاولة الأستاذ أمين الخولي في بحثه الذي قدمه إلى مؤتمر المستشرقين المنعقد باستانبول 1950 وموضوعه: "الاجتهاد في النحو العربي".

وتتابعت هذه الدعوات ولا يزال صداها يجدد إلى اليوم ففي كل مرة تطلع علينا جهة بنفس النغمة بعضها عن حسن نية وبعضها عن خبث طوية.

وقد علمنا أن النشأة الأولى للنحو كانت في رحاب القرآن الكريم وأن الداعي والسبب إلى وجوده القرآن الكريم وأن الأصول الأولى التي استنبط منها النحاة الأوائل هي: القرآن الكريم وقراءاته وكلام العرب (شعرا ونثرا) وأن هناك أعلاما عظاما واصلوا بياض نهارهم بسواد ليلهم وجابوا الفيافي والصحاري وتركوا تراثا نحويا أصوله واضحة المعالم لا يشك فيها إلا جاهل بأصالتها أو متحامل.

---

[27] الرماني النحوي، د/مازن المبارك، ص:85.

وظهرت هذه الصيحات والدعوات أول ما ظهرت في صورة الغيرة على القراءات القرآنية وأن النحاة وقفوا منها موقف الرافض لها والثابت لدى الدارسين النزهاء أن النحاة ما رفضوا القراءات بل أخذوا حتى بالقراءات الشاذة منها [28]. ونثبت نصوصا تسند ما ذهبنا إليه.

(1)- قال د/الأفغاني في كتابه "في أصول النحو": وقد جرى عرف العلماء على الاحتجاج برواياته (يعني: القرآن) سواء أكانت متواترة أم روايات آحاد أم شاذة. والقراءة الشاذة التي منع القراء قراءتها في التلاوة يحتج بها في اللغة والنحو إذ هي على كل حال أقوى سندا وأصح نقلا من كل ما احتج به العلماء من الكلام العربي غير القرآن [29].

(2)- وقال عبد الخالق عضيمة: القرآن الكريم حجة في العربية بقراءاته المتواترة وغير المتواترة كما هو حجة في الشريعة فالقراءة الشاذة التي فقدت شرط التواتر لا تقل شأنا عن أوثق ما نقل إلينا من ألفاظ اللغة وأساليبها وقد أجمع العلماء على أن نقل اللغة يكتفي فيه برواية الآحاد [30].

وقال القسطلاني: لم تزل العلماء تستنبط من كل حرف يقرأ به قارئ معنى لا يوجد في قراءة الآخر ذلك المعنى. فالقراءات حجة الفقهاء في الاستنباط ومحجتهم في الاهتداء إلى سواء الصراط [31].

(3)- قال السيوطي: وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخالف قياسا معروفا بل لو خالفته يحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه وإن لم يجز القياس عليه كما يحتج بالمجمع على وروده ومخالفته القياس في ذلك الوارد بعينه ولا يقاس عليه. وما ذكرته من الاحتجاج بالقراءة الشاذة لا أعلم فيه خلافا بين النحاة (وأهل العربية) وإن اختلف في الاحتجاج بها في الفقه [32].

---

[28] القراءات الشاذة وأثرها في الدراسات النحوية والأحكام الشرعية، ابن التواتي. التواتي، رسالة دكتوراه مقدمة إلى الجامعة (مخطوط).

[29] في أصل النحو، د/سعيد الأفغاني، ص: 28-29.

[30] دراسات لأسلوب القرآن، عبد الخالق عضيمة، ½.

[31] القراءات القرآنية وأثرها في التفسير والأحكام، د/محمد بازمول، 75/1.

[32] الاقتراح في أصول النحو، السيوطي، ص: 248.

وعلى هذا نقول – خلافا لما يعتقده البعض: فقد أفاد النحاة من أوجه الاختلاف في القراءات وذلك لأنها لون من ألوان اللغات الخاصة وهو ما يسمى بـ (اللهجات)، وبهذا يكون قد تم لهم علم لغوي تأريخي متطور في ألفاظه وتراكيبه.

وبناء على ما ذكرنا فإن هذه القراءات كان لها دورها في الحفاظ على اللهجات العربية وهي لا زالت مصدرا هاما تمد الدارسين في شتى مناحي الدراسات اللغوية (نحوا وصرفا وصوتيات).

الرد على صاحب "إحياء النحو"

آن لنا أن نقدم ردود العلماء في العصر الحديث على هؤلاء ومقارعة الحجة بالحجة ونرد على التهم التي وجهها صاحب "إحياء النحو" – رحمه الله – للنحاة القدامى.

التهمة الأولى

قال المؤلف: في ص1: يقول النحاة في تحديد علم النحو: إنه علم يعرف به أحوال أواخر الكلم إعرابا وبناء" ثم قال: "فيقصرون بحثه على الحرف الأخير من الكلمة، بل على خاصة من خواصه وهي الإعراب والبناء" وقال: غاية النحو (أي عند النحويين) بيان الإعراب وتفصيل أحكامه حتى سماه بعضهم علم الإعراب".

وقال: "وفي هذا التحديد تضييق شديد لدائرة البحث النحوي وتقصير لمداه وحصر له في جزء يسير مما ينبغي أن يتناوله" وتساءل الشيخ الخضر فقال: لا ندري ماذا صنع المؤلف عندما وقف على هذا التعريف الذي ساقه لعلم النحو هل تجاوزه إلى مطالعة ما كتبه أهل العلم في شرحه أو أنه اقتصر على قراءته وحده. وقال: ثم أعاد الأستاذ دعوى أن النحاة قصروا النحو على البحث في أواخر الكلم وقال: "قد أخطأوا إلى العربية حين حددوا النحو، وضيقوا بحثه حرموا أنفسهم وحرمونا من الاطلاع على كثير من أسرار العربية وأساليبها المتنوعة ومقدرتها في التعبير فبقيت هذه الأسرار مجهولة ولم نزل نقرأ العربية ونحفظها ونرويها ، ونزعم أننا نفهمها ونحيط بما فيها من إشارة وما لأساليبها من دلالة والحق أنه يخفى علينا كثير من فقه أساليبها ومن دقائق التصوير بها.

والدارس للنحو في مصادره الأولى يجد أنّ النحاة لم يقصروا على البحث في أواخر الكلم وإنّهم بحثوا في أحوال التأليف من كلّ ناحية تدخل في موضوع علمهم ولا يسلم للأستاذ إبراهيم مصطفى أنّهم حرموا أنفسهم وحرموا من اتبعهم من الاطلاع على كثير من أسرار العربية وأساليبها المتنوعة وإليك التحقيق: للنظر في أسلوب الكلام جهتان:

أولاهما: جهة صحة تأليف الكلام ونسجه بحيث لا يعد صاحبه خارجا عن العربية محكوما عليه باللحن وبعبارة أخرى يكون الكلام مطابقا لأحد الأساليب التي يؤدي بها العرب المعنى الأصلي بليغا أو غير بليغ، وهذه الجهة هي التي يبحث عنها النحاة.

ثانيهما: جهة أخذ الكلام مرتبة من المراتب الزائدة على صحّة التأليف عربية، أعني مراتب حسن البيان وهذه الجهة هي التي يبحث عنها علماء البلاغة.

وإذا درسنا كتب النحو وكتب البلاغة بإنصاف ونزاهة وجدنا كلا من الطائفتين قد قطعوا في البحث عن فقه الأساليب ودقائق التصور بها أشواطا واسعة وبلغوا فيها إلى غايات بعيدة، فدعوى أنّهم حرموا أنفسهم أو حرموا أتباعهم من الاطلاع على كثير من أسرار العربية مبنية على أنّ النحاة قد ضيقوا بحث علم النحو، وقد رأينا أنّهم لم يضيقوه ولكنهم لم يريدوا أن يتعدوا حدوده إلى موضوعات يبحث عنها في علوم أخرى كعلم اللغة وفقهها أو علوم البلاغة.

ويضاف على ما قاله الشيخ الخضر هل اطلع المؤلف – رحمه الله على تعريف أبي عليّ الفارسي للنحو: "النحو علم بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب" [33].

عرفه ابن جني: النحو أن ننحو سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم وإن شذ

[33] التكملة، أبو علي الفارسي، 3/2.

بعضهم عنها رد به إليها وهو في الأصل مصدر شائع أي نحوت نحوا كقولك قصدت قصدا ثم خص به انتحاء هذا القبيل من العلم" [34].

وعرفه ابن الطراوة: "النحو تسديد الذهن للتمييز بين الاستقامة في الكلام والإحالة" مع إقرارنا أنّ تعريف بن الطراوة: هو نقد نزيه ودعوة إلى إعادة النظر في مناهج النحاة [35].

وعرف النحوَ ابنُ سيده اللغوي: "النحو أخذ من قولهم: انتحاه إذا قصده إنّما هو انتحاء سمت كلام العرب من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع والتصغير والتكسير والإضافة والنسب ليلحق به من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها". هو تعريف احتذى فيه حذو ابن جني وعرفه ابن كمال باشا في رسالة تعرض فيها للتفرقة بين موضوع علم النحو وعلم المعاني: ويشارك النحوي صاحب المعاني في البحث عن المركبات إلا أن النحوي يبحث عنها من جهة هيأتها التركيبية صحة وفسادا، ودلالة تلك الهيئات على معانيها الوضعية على وجه السداد، وصاحب المعاني يبحث عنها من جهة حسن النظم المعبر عنه بالفصاحة في التركيب وقبحه".

وقال: "فما يبحث عنه في علم النحو من جهة الصحة والفساد يبحث عنه علم المعاني من جهة الحسن والقبح وهذا معنى كون علم المعاني تمام علم النحو" [36].

والذي قاله صريح في أن بحث علم النحو لا يقف به النحاة عند حدّ الإعراب والبناء.

عرفه التهانوي: "علم النحو هو علم يعرف به كيفية التركيب العربي صحة وسقاما، وكيفية ما يتعلق بالألفاظ من حيث وقوعها فيه ... والغرض منه الاحتراز عن الخطأ في التأليف، والاقتدار على فهمه والإفهام به [37].

لكن الأستاذ إبراهيم مصطفى اكتفى بما ورد في المتون التعليمية وتعريفات المتأخرين فحسب ومن كان زاده ضحل من النحو يرى أن هذا هو التعريف الذي أجمع عليه النحاة منذ نشأته وأن الغاية في النحو هو ما احتوته ألفية ابن مالك وشروحها

---

[34] الخصائص، ابن جني، 34/1.

[35] أبو الحسن بن الطراوة وأثره في النحو، د/محمّد إبراهيم البناء، ص: 66 لنا وقفة أخرى عند هذا التعريف شرحه بالتفصيل.

[36] دراسات في اللغة العربية وتاريخها، الشيخ الخضر، ص: 184.

[37] كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي، ص: 24.

أو ما كتبه بعض المتأخرين من النحاة حين أصيبت الأمة العربية بتقهقر وتأخر وجمود ولو عادوا إلى ينابيعه الأولى فاحيوها لحيوا بها . وإن هذا العلم ما نشأ من فراغ ولم يكن نتيجة تأمل فلسفي، وإنما هو علم استنبطت قوانينه من كلام الباري تعالى حفظت به اللغة التي نزل القرآن تبعا لحفظه ولا تصح المقارنة بأي حال من الأحوال بين لغة نشأت في رحاب القرآن ولغة نشأت في بلاط ملك، ولازالت محافظة على لثغته وعدت نوع من التحضر والدرجة القصوى في التمدن .

وقد بين علي بن عيسى الرماني الغرض من هذا العلم فقال: الغرض في النحو تبيين صواب الكلام من خطأ على مذهب العرب بطريق القياس [38].

وتحدث الزجاجي عن الفائدة من تعلم النحو، فقال : الفائدة فيه الوصول إلى التكلم بكلام العرب على الحقيقة صوابا غير مبدل ولا مغير، وتقديم كتاب الله تعالى الذي هو أصول الدين والدنيا والمعتمد ومعرفة أخبار النبي – صلى الله عليه وسلم –، وإقامة معانيها على الحقيقة لأنه لا تفهم معانيها على صحة إلا بتوفيتها حقوقها من الإعراب[39]. فالزجاجي ها هنا لا يرى الفائدة من النحو إعراب أواخر الكلمة كما توهمه الأستاذ إبراهيم مصطفى، وإنما الفائدة من تعلمه إقامة المعاني على حقيقتها ولا يتأتى ذلك إلا بتوفيتها حقها من الإعراب ونطقها نطقا سليما غير محرف ولا مغير.

وإذا عدنا إلى تعريف ابن الطراوة الآنف الذكر وحللناه والتمسنا منه فصل الخطاب في هذه المسألة نجد أن سلفنا كان يدعو إلى التجديد البناء والتيسير المفيد والسير بهذا العلم الذي هو أساس لفهم القرآن وعُدَّ قاعدة مثلى يعتمدها أيّ متصدّ لتفسير القرآن الكريم وهو إجماع بين علماء الإسلام ونثبت هاهنا بعض أقوالهم توثيقا لما ذكرناه .

1- يقول السيوطي: معرفة النحو ضرورية لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب فلا بد من اعتباره أخرج أبو عبيد عن الحسن أنه سئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته فقال حسن فتعلمها فإن الرجل يقرأ

---

[38] رسالتان في اللغة، علي بن عيسى الرماني، ص: 67.

[39] الإيضاح في علل النحو، الزجاجي، ص: 95.

الآية فيعيى بوجهها فيهلك فيها [40].

2- وأورد القرطبي نصوصا تبين كلها حاجة المفسر إلى النحو فقال: قال حماد بن سلمة من طلب الحديث ولم يتعلم النحو أو قال العربية فهو كمثل الحمار تعلق عليه مخلاة ليس فيها شعير قال ابن عطية: إعراب القرآن أصل في الشريعة لأن بذلك تقوم معانيه التي هي في الشرع .

قال ابن الأنباري: وجاء عن الصحابة وتابعيهم من الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله باللغة والشعر ما بين صحة مذهب النحويين في ذلك وأوضح فساد مذهب من أنكر ذلك عليهم [41].

3- قال الزركشي: والإعراب يبين المعنى وهو الذي يميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين بدليل قولك ما أحسن زيدا ولا تأكل السمك وتشرب اللبن وكذلك فرقوا بالحركات وغيرها بين المعاني فقالوا مفتح للآلة التي يفتح بها ومفتح لموضع الفتح ومقص للآلة ومقص للموضع الذي يكون فيه القص ويقولون امرأة طاهر من الحيض لأن الرجل يشاركها في الطهارة [42].

4- يقول د/حبنكة الميداني: على دارس أي نص عربي أن يكون خبيرا عالما بقواعد علم النحو لأن فهم النص بشكل صحيح كامل مرتبط ارتباطا كليا بمعرفة موضع كل كلمة في الجملة العربية ومعرفة إعرابها، وهذا لا يتيسر إلا لمن عنده زاد من هذا العلم وإلا وقع في أخطاء فكرية فاحشة وهو يشرح معنى النص [43].

5- يقول د/أحمد خليل إن النحو كان ولا يزال عاملا هاما في فهم النص القرآني وتوجيه قراءاته ، وعلاقة هذه القراءات باللهجات العربية التي تألفت منها تلك اللغة التي نزل بها القرآن جامعا للعرب ومؤلفا بينهم وداعيا إلى توحدهم في أمة لها مقوماتها وأصولها . والنحو ليس صناعة تتلقى ولا رياضة عقلية ولسانية بقدر ما هو أساس لتحليل النص وبيان وجوه إعجازه وامتيازه على غيره من النصوص بخصائص

---

[40] الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، 477/2.

[41] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 24/1.

[42] البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 301/1-302.

[43] قواعد التدبر الأمثل لكتاب عز وجل، عبد الرحمن حسين حبنكة الميداني، ص: 154.

تفرده عنها، وتحدد مكانه في حياة اللغة وفي تعديل القيم الجمالية [44].

التهمة الثانية

وجه إلى النحو تعدد أوجه الإعراب فقيل: إن النحاة رسموا للنحو طريقة لفظية فاهتموا ببيان الأحوال المختلفة للفظ من رفع أو نصب من غير فطنة لما يتبع هذه الأوجه من أثر في المعنى يجيزون في الكلام وجهين أو أكثر من أوجه الإعراب ولا يشيرون إلى ما يتبع كل وجه من أثر في رسم المعنى وتصويره، وبهذا يشتد جدلهم، ويطول احتجاجهم ثم لا ينتهون إلى كلمة فاصلة" [45].

فيرد عليهم: إن النحاة يبحثون عن الأساليب التي لا يقال للناطق بها قد جئت بما لا تتكلم به العرب ، فإذا أجازوا في بعض التراكيب وجهين أو وجوها من الإعراب فمعنى ذلك أن هذين الوجهين أو تلك الوجوه قد تكلم بها العرب عند تأدية المعنى الأصلي لذلك التركيب يقولون هذا ولا ينفون أن يكون لكل وجه من الوجهين أو الوجوه أثر في تصوير المعنى الأصلي يغاير الآثار التي قد يحدثها غيره من الوجوه، فهم إذا اختلفوا في وجه من وجوه الإعراب يجيزه طائفة ويمنعه آخرون، فإن اختلافهم يرجع إلى أن هذا الوجه قد نطق به العرب في مثل هذا التركيب أو لم ينطقوا، وبعد أن يقوم الشاهد على جواز وجهين أو وجوه في التركيب، قد ينبهون إلى ما يفترق به الوجهان أو الوجه من الأثر في رسم المعنى الأصلي وتصويره، وإن صح أنهم لم ينتهوا في جدلهم إلى كلمة فاصلة فلأن المجيز لبعض الوجه لم يقم الشاهد المقنع لخصمه من كلام فصيح أو قياس صحيح .

يضاف إلى هذا رأي المنكرين لتعدد وجوه الإعراب في الآيات القرآنية التي قرئت بعدة وجوه وتعدد إعرابها وهنا نسأل: أيعد هذا فوضى في الإعراب وفساد في النحو يجب إصلاحه أم أن القراءة سنة متبعة ؟ ونعني بالقراءة سنة (أي: توقيف من الله تعالى) وهو ما يعتقده النحاة قاطبة إلا من شذ منهم كالزمخشري فلا يلتفت إليه ونثبت ها هنا نموذجين من القرآن الكريم تعددت وجوه القراءة بهما .

---

[44] دراسات في القرآن، د/أحمد خليل، ص: 105.

[45] إحياء النحو، إبراهيم مصطفى.

النمـــوذج الأول: قولـــه تعـــالى: (وقـــال إنمـــا اتخذتـــم مـــن دون الله أوثانـــا مـــودة بينكـــم) العنكبوت/25 فأما هذه الآية الكريمة فقد أشبعها العلماء بحثـــا نذكـــر منـــهم:

1-مكي بن أبي طالب فقد بحث وتقصـــى وجـــوه إعـــراب هـــذه الآيـــة والمعـــاني المســـتفادة منها فقال (ما) بمعنى الذي وهي اسم إن والهاء مضمرة وتعـــود علـــى مـــا تقديـــره إن الذيـــن اتخذتموهم وأوثانا مفعول ثـــان لاتخذتـــم والـــهاء المحذوفـــة هـــي المفعـــول الأول لاتخذتـــم ومودة خبر إن وقيل هي رفع بإضمار هي مـــودة وقيـــل هـــي رفـــع بـــالابتداء وفـــي الحيـــاة الدنيا الخبر والجملة خبران وبينكم خفـــض بإضافـــة (مـــودة) إليـــه وجـــاز أن تجعـــل الـــذي اتخذوه من دون الله مـــودة علـــى الاتســـاع وتصحيـــح ذلـــك أن يكـــون التقديـــر: إن الذيـــن اتخذتموهم من دون الله أوثانا ذوو مودة بينكم. وقد قـــرئ بنصـــب (مـــودة) وذلـــك علـــى أن تكون ما كافة لان عن العمل فلا ضمير محـــذوف فـــي (اتخذتـــم) فيكـــون (أوثانـــا) مفعـــولا لاتخذتم لأنه تعدى إلى مفعول واحد واقتصـــر عليـــه كمـــا قـــال إن الذيـــن اتخـــذوا العجـــل سينالهم وتكون (مودة) مفعولا من أجله أي: إنما اتخذتم الأوثـــان مـــن دون الله للمـــودة فيمـــا بينكم لا لأن عند الأوثان نفعا أو ضرا ومن نـــون (مـــودة) نصـــب أو رفـــع جعـــل (بينكـــم) ظرفا فنصبه وهو الأصل والإضافـــة اتســـاع فـــي الكـــلام والعـــامل فـــي الظـــرف المـــودة ويجوز أن تنصب (بينكم) في قراءة من نون (مـــودة) علـــى الصفـــة للمصـــدر؛ لأنـــه نكـــرة والنكرات توصف بالظروف والجمل والأفعال فإذا نصبـــت (بينكـــم) علـــى الظـــرف جـــاز أن يكون قوله (في الحياة الدنيا) ظرفا للمودة أيضـــا وكلاهمـــا متعلـــق بالعـــامل وهـــو (مـــودة) لأنهما ظرفا مكان أو ظرفا زمان ولا ضمير فـــي واحـــد مـــن هذيـــن الظرفيـــن إذا لـــم يقـــم واحد منهما مقام محـــذوف مقـــدر وإذا جعلـــت قولـــه (بينكـــم) صفـــة لمـــودة كـــان متعلقـــا بمحذوف وفيه ضمير كان في المحذوف الذي هو صفة علـــى الحقيقـــة فيكـــون فـــي (الحيـــاة الدنيا) في موضع الحال من ذلك الضمير في (بينكم) والعـــامل فيـــه الظـــرف وهـــو (بينكـــم) وفي الظرف وهو (في الحيـــاة الدنيـــا) ضمـــير يعـــود علـــى ذي الحـــال والصفـــة لا بـــد أن يكون فيها عائد على الموصـــوف فـــإذا قـــام مقـــام الصفـــة ظـــرف صـــار ذلـــك الضمـــير في الظرف كما يكون في الظرف إذا كـــان خـــبرا لمبتـــدأ أو حـــالا وقـــد تقـــدم شـــرحه ولا يجوز أن يعمل في قوله (في الحياة الدنيا) وهو حال مـــن المضمـــر فـــي بينكـــم مـــودة لأنـــك قد وصفت المصدر بقوله(بينكم) ولا يعمل بعد الصفة لأن المعمـــول فيـــه داخـــل فـــي الصلـــة

والصفة غير داخلة في الصلة فتكون قد فرقت بين الصلة والموصول فلا يعمل فيه إذا كان حالا من المضمر في (بينكم) إلا بينكم وفيه ضمير يعود على المضمر في (بينكم) وهو (هو) لأن كل حال لا بد أن يكون فيه ضمير يعود على ذي الحال كالصفة وأيضا فإن قوله (في الحياة الدنيا) إذا جعلته حالا من المضمر في (بينكم) والمضمر في (بينكم) إنما ارتفع بالظرف وجب أن يكون العامل في الحال الظرف أيضا لأن العامل في ذي الحال هو العامل في الحال أبدا لأنها هو في المعنى فلا يختلف العامل فيهما ؛ لأنه لو اختلف لكان قد عمل عاملان في شيء واحد إذ الحال هي صاحب الحال فلا يختلف العامل فيهما ويجوز أن يكون في الحياة الدنيا صفة لمودة وبينكم صفة أيضا فلا بد أن يكون في كل واحد منهما ضمير يعود على المودة والعامل فيها المحذوف الذي هو صفة على الحقيقة، وفيه كان الضمير فلما قام الظرف مقامه انتقل الضمير إلى الظرف كما ينتقل إلى الظروف إذا كانت إخبارا للمبتدأ وتقدير المحذوف كأنه قال: إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة مستقرة بينكم ثابتة في الحياة الدنيا ثم حذفت مستقرة وفيها ضمير وثابتة وفيها ضمير يعودان على المودة وقام (بينكم) مقام مستقرة التي هي صفة فصار الضمير الذي كان فيها يعود على الموصوف في بينكم وصارت صفة للمودة لأنها خلف عن الصفة وكذلك حذفت ثابتة وفيها ضمير وأقمت في الحياة الدنيا مقامها فصار الضمير في قولك في الحياة الدنيا فذلك المحذوف هو العامل في الظرفين وقام مقام المحذوفين الصفتين فصارا صفتين فيهما ضميران يعودان على الموصوف وعلى هذا يقاس كل ما شابهه فافهم هذه المسألة فقد كشفت لك فيها سرائر النحو وغرائبه [46].

2- قال أبو زرعة في حجته: قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر (مودة) بفتح الهاء من غير تنوين (بينكم) بكسر النون وقرأ الأعشى (مودة) بالرفع والتنوين (بينكم) بالنصب وقرأ أبو عمرو والكسائي (مودة) بالرفع غير منون (بينكم) بالخفض فمن رفع فله مذهبان:

أحدهما: أن يجعل إنما كلمتين ويكون معنى ما بمعنى الذي وهو اسم إن و(مودة) خبر إن ومفعول (اتخذتم) محذوف والمعنى: إن الذي اتخذتموه مودة بينكم .

---

[46] مشكل إعراب القرآن، ابن أبي طالب مكي، 2/552-553-554-555.

الثاني: أن ترفعها بالابتداء وفي الحياة الدنيا خبرها وتجعل ما كافة على هذا الوجه.

قال الزجاج:

ويجوز أن ترفع على إضمار هي كأنه قال: تلك مودة بينكم في الحياة الدنيا أي ألفتكم وإجماعكم على الأصنام مودة بينكم في الحياة الدنيا ومن نصب جعل المودة مفعول (اتخذتم) وجعل (ما) مع (أن) كافة ولم يعد إليها ذكرا كما أعاد في الوجه الأول وانتصب (مودة) على أنه مفعول له أي اتخذتم الأوثان للمودة بينكم نصب على الظرف والمعنى: إنما اتخذتم من دون الله أوثانا آلهة فحذف كما حذف (من) قوله إن الذين اتخذوا العجل سينالهم معناه اتخذوا العجل إلها ومن قرأ (مودة بينكم) أضاف المودة إلى البين وجعل البين الوصل [47].

3- قال ابن خالويه: وقوله تعالى: (مودة بينكم) يقرأ بالإضافة والرفع معا والنصب، وبالتنوين والرفع معه والنصب.

فالحجة لمن رفع مع الإضافة: أنه جعل (إنما) كلمتين منفصلتين إن الناصبة وما بمعنى الذي واتخذتم صلة ما وفي اتخذتم (ها) محذوفة تعود على الذي وأوثانا مفعول به ومودة خبر إن وتلخيصه إن الذي اتخذتموه أوثانا مودة بينكم ومثله قول الشاعر:

ذريني إنما خطئي وصوبي علي وإنما أهلكت مال.

وله في الرفع وجه آخر أن يرفع قوله (مودة) بالابتداء لأن الكلام قد تم عند قوله (أوثانا) وقوله (في الحياة الدنيا) الخبر.

الحجة لمن نصب: أنه جعل المودة مفعول اتخذتم سواء أضاف أو نون وجعل إنما كلمة واحدة أو جعل المودة بدلا من الأوثان ومن نصب (بينكم) مع التنوين جعله ظرفا ومن خفضه مع الإضافة جعله اسما بمعنى وصلكم وقد ذكر ذلك في الأنعام [48].

4- قال العكبري: (ما) ثلاثة أوجه: الوجه الأول: هي بمعنى الذي والعائد محذوف أي اتخذتموه و (أوثانا) مفعول ثان أو حال ومودة

والوجه الثاني :هي كافة وأوثانا مفعول ومودة بالنصب مفعول له وبالرفع

---

[47] حجة القراءات، ابن زنجلة أبو زرعة، 1/550-551 كتاب السبعة في القراءات، ابن مجاهد، 1/498-499.

[48] الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه، 1/279-280.

على إضمار مبتدأ وتكون الجملة نعتا لأوثان ويجوز أن يكون النصب على الصفة أيضا أي ذوي مودة .

والوجه الثالث: أن تكون ما مصدرية ومودة برفع الخبر ولا حذف في هذا الوجه في الخبر بل في اسم إن والتقدير : إن سبب اتخاذكم مودة . ويقرأ (مودة) بالإضافة في الرفع والنصب و (بينكم) بالجر وبتنوين (مودة) في الوجهين جميعا ونصب بين وفيما يتعلق به (في الحياة الدنيا) سبعة أوجه:

الأول: أن تتعلق بـ (اتخذتم) إذا جعلت ما كافة لا على الوجهين الأخريين لئلا يؤدي إلى الفصل بين الموصول وما في الصلة بالخبر .

والثاني: أن يتعلق بنفس مودة إذا لم تجعل بين صفة لها لأن المصدر إذا وصف لا يعمل .

والثالث: أن تعلقه بنفس بينكم لأن معناه اجتماعكم أو وصلكم.

والرابع: أن تجعله صفة ثانية لمودة إذا نونتها وجعلت (بينكم) صفة.

والخامس: أن تعلقها بمودة وتجعل (بينكم) ظرف مكان فيعمل (مودة) فيهما .

والسادس: أن تجعله حالا من الضمير في (بينكم) إذا جعلته وصفا لمودة .

والسابع: أن تجعله حالا من (بينكم) لتعرفه بالإضافة وأجاز قوم منهم أن تتعلق (في) بـ (مودة) وإن كان (بينكم) صفة لأن الظروف يتسع فيها بخلاف المفعول به [49].

وعلّق د/عفيف دمشقية عن الوجوه التي قرئت بها هذه الآية الكريمة فقال مشفقا على طالب النحو فقال: إنّ من يمعن النظر في هذه التعليلات والتخريجات والتعليقات يتأكّد له ما كان للوجوه الأربعة التي قرئت بها هذه الآية من أثر عميق في فتح باب الاجتهاد المنطقي في الدرس على مصراعيه حتى لينوء طالب النحو بتحمّل أعبائها ويعيا عن استيعابها مهما كان مقدار طاقته على التذكر والحفظ ثمّ قال: وهذا لعمري من الأسباب التي تنفر من الدرس النحوي، بينما الأجدى والأنفع أن يقتصر في الآية على القراءة بالوجه المشهور فيها وتتم دراستها الإعرابية ببساطة ويسر[50].

---

[49] التبيان في إعراب القرآن، العكبري، 182/2.

[50] أثر القراءات القرآنية في الدرس النحوي، د/عفيف دمشقية، ص: 146.

تعليق: إن ما أورده د/عفيف يدعو للاستغراب ... ! ألم يعلم أن هذه الكيفيات في الأداء القرائي كلها مشهورة وأنها من القراءات السبع المجمع على صحتها وأنه لا يجوز شرعا تفضيل قراءة على أخرى .

هناك تساءل آخر: ما الغاية من دراسة العربية ؟ إن كانت دراسة العربية وسيلة لفهم النص الذي من أجله أنشئ النحو العربي فإن الأستاذ عفيف يكون ها هنا مخطئا فيما ذهب إليه لأن البحث النحوي يستمد قوانينه مما استنبطه النحاة الأوائل من القرآن الكريم وقراءاته. وأنه أي: القرآن الكريم وقراءاته حافظا على اللغة العربية وما كتب لها الاستمرار والتواصل بين أجيال الناطقين بها إلا بهما كما أمداها بالحياة والبقاء، فهما (أي: القرآن وقراءاته) كانا الحصن الحصين للعربية ولولاهما لاختلفت لهجاتها وبمرور الزمن لا نعدم التفاهم بين القبائل العربية ولاحتاجوا فيما بعد إلى من يترجم بينهم...وإن تعدد هذه الأوجه في القراءات هو الذي جعل الطفل في الأقسام الأولى يقرأ معلقة امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة بن العبد ولبيد بن ربيعة وغيرهم بلا تلعثم وقد يفهم بعض مفرداتها بدون لجوء إلى قاموس .

أما إذا كانت نشأة النحو غاية في حد ذاتها فإن رأيه يكون سديدا إلا أن له معترضا من اللهجات العربية التي نزل بها القرآن وأن هذه الكيفيات في الأداء القرائي مجسدة فيما نطقت به العرب واختصارنا على قراءة واحدة يعتبر إسقاط وهدر لحرف من حروف العربية التي نزل بها القرآن الكريم.

النموذج الثاني: قوله تعالى: (فامسحوا برؤوسكم وأرجلكم) المائدة/6 قرأ نافع وابن عامر والكسائي وحفص (وأرجلكم) بالفتح وحجتهم أنها معطوفة على الوجوه والأيدي فأوجبوا الغسل عليهما. وعن أبي عبد الرحمن عبد الله ابن عمر قال: كنت أقرأ أنا والحسن والحسين قريبا من علي –رضي الله عنه– وعنده ناس قد شغلوه فقرأنا وأرجلكم (بالفتح) فقال رجل: وأرجلكم بالكسر فسمع ذلك علي – رضي الله عنه– فقال: ليس كما قلت ثم تلا الآية . هذا من المقدم والمؤخر في الكلام قلت وفي القرآن من هذا التقديم والتأخير كثير.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وأبو بكر وأرجلكم خفضا عطفا على الرؤوس وحجتهم في ذلك ما روي عن ابن عباس أنه قال: الوضوء غسلتان ومسحتان وقال

الشعبي: نزل جبرائيل بالمسح ألا ترى أنه أهمل ما كان مسحا ومسح ما كان غسلا في التيمم .

والصواب من القول ما عليه فقهاء الأمصار أن الغسل هو الواجب نحو الرجلين ويجوز أن يكون قوله وأرجلكم بالخفض حملت على العامل الأقرب للجوار وهي في المعنى للأول كما يقال: هذا جحر ضب خرب فيحمل على الأقرب وهو في المعنى للأول . قال الفراء : وقد يعطف بالاسم على الاسم ومعناه يختلف [51].

ألا ترى أنّ قراءتين (أي النصب والكسر) كلاهما مأثور عن النبيّ – صلى الله عليه و سلّم – ويترتب عن كلّ منهما حكما شرعيا، وإسقاط إحداهما إسقاط لحكم شرعي منصوص عليه قرآنا فدعوى الاقتصار على قراءة واحدة دعوة باطلة .

الجهل أو التجاهل بما خلّفه الأعلام الأوائل

وإنّا لا نعجب حين نقرأ لبعض الباحثين المحدثين تنطعهم على الأعلام الأوائل وخروجهم عن القصد حين يتحاملون عليهم وقد غاب عن هؤلاء المتحاملين أنّ أعلامنا كان العلم سلوتهم، والدقة العلمية منهجهم وإظهار الوجه الحق غايتهم فلم يكن هدفهم نيل مادة أو شهرة أو متاع وإنّما خدمة العلم فحسب، ولعلّ الخليل بن أحمد خير مثال فقد عرض عليه أحد الأمراء المال والحضوة فأبى.

ومن يقرأ انتقادات بعض الدارسين المحدثين توحي أنّهم لم يكونوا على دراية واسعة بموضوع علم النحو ولا اطلاع كاف بما خلّفه الأعلام الأوائل وإن أشاروا إلى بعض المؤلفات فكأنّي بهم لا يعرفون منها إلاّ عناوينها أمّا محتوياتها فإنّ اعتراضاتهم تنبئ عدم الاطلاع عليها وإلاّ كيف نفسر تحامل بعضهم على النحاة في معرض إشادته بما قدّمه البلاغيون من خدمات جليلة لنظام الجملة فقال: ولننظر مثلا في دراسة البلاغيين لأساليب الأمر في العربية نجد عندهم الأمر بفعل الأمر (اكتب /اكتبي/اكتبوا/اكتبن/، والأمر بالمضارع المقرون بلام الأمر (ليكتب /لتكتبي/ واسم فعل الأمر (حذار/صه) والمصدر النائب عن فعل الأمر نحو: (وبالوالدين إحسانا).

---

[51] حجة القراءات، أبو زرعة، 1/222–223.

فقرة كاملة تتعلق بأسلوب الاستفهام كانت محل نقاش بين سيبويه وعبد القاهر الجرجاني رغم القرون التي تفصلهما وهذا بيانها :

فحديثه عن الاستفهام نراه يستحسن أن يلي المسئول عنه الهمزة فيتقدم على الفعل يستحسن ذلك فقط ولا يجعله فاسدا إذا لم يل الهمزة، بل يجيز له أن يتقدم أو يتأخر وإن كان التقديم عنده أفضل ففي (باب أم إذا كان الكلام بها بمنزلة أيهما وأيهم). وذلك قولك: "أزيد عندك أم عمرو" "وزيد لقيت أم بشرا"، فأنت الآن مدع أن عنده أحدهما.

واعلم أنك إذا أردت هذا المعنى فتقديم الاسم أحسن لأنك لا تسأله عن اللقى وإنما تسأله عن أحد الاسمين لا تدري أيهما هو، فبدأت بالاسم لأنك تقصد قصدا أن يبين لك أي الاسمين عنده و جعلت الاسم الآخر عديلا للأول، و صار الذي لا تسأل عنه بينهما و لو قلت "ألقيت زيدا أم عمرا" كان جائزا حسنا وإنما كان تقديم الاسم هاهنا أحسن ولم يجز للآخر إلا أن يكون مؤخرا لأنه قصد أحد الاسمين فبدأ بأحدهما [55].

كذلك فإنه في جواز التقديم والتأخير إذ الفعل هو المسئول عنه، غير أن تقديم الفعل أولى وأفضل وإن كان تأخير الفعل المسؤول عنه حسنا أيضا فتقول: "أضربت زيدا أم أهنته" فالبدء بالفعل ها هنا أحسن لأنك إنما تسأل عن أحدهما لا تدري أيهما كان، ولم تسأل عن موضع أحدهما فالبدء بالفعل ها هنا أحسن كما كان البدء بالاسم ثم أحسن [56].

والتقط عبد القاهر من سيبويه هذا المعنى، وعمل فيه ذوقه وحسه، ورأى أن المسئول عنه مقدم لا محالة سواء كان اسما أو فعلا، وأنه إذا تأخر فإن الكلام يصبح فاسدا، ويؤكد زعمه بسبب وجيه في هذا الفساد الذي طرأ على العبارة من تأخير المسئول عنه بل إنه لم يأت بسبب على الإطلاق في بيان ذلك، ومن ثم فنحن نعجب بذوقه وحسه وإن لم نقتنع برأيه وحكمه .

فعبد القاهر حين يتصدى للتفرقة بين التقديم وتركه يقول: إذا قلت أفعلت ؟ فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده .

---

[55] الكتاب، سيبويه، 483/1.

[56] الكتاب، سيبويه، 483/1.

فقال: وإذا قلت: أأنت فعلت ؟ فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو وكان التردد فيه. فهذا من الفرق لا يدفعه دافع، ولا يشك فيه شاك، ولا يخفى فساد أحدهما في موضع الآخر[57].

تعليق: ومن ثم فنحن نستصوب رأي سيبويه حتى نضع أيدينا على دليل يؤيد قول عبد القاهر ولا يعتمد على الذوق وحده حيث إنه يخطئ ويصيب وإنه نسبي يتفاوت من شخص لآخر وابن جني لا يأخذ برأي سيبويه في أمر التقديم والتأخير، وسره البلاغي من حيث العناية والاهتمام أو التنبيه ويثور على ما ارتآه سيبويه فيقول :"وإنما هو شيء رآه سيبويه واعتقده قولا، ولسنا نقلد سيبويه ولا غيره في هذه العلة ولا غيرها، فإن الجواب عن هذا حاضر عتيد والخطب فيه أيسر[58].

ولا يهمنا الخلاف بين هؤلاء الأعلام بقدر ما يهمنا أن لهم موقفهم من التحليل في قضايا النحو ولم تكن بحوثهم منصبة على أواخر الكلم وقضايا الإعراب .

وخير دليل على ذلك ما وضعه عبد القاهر أمامنا من الفروق الدقيقة الشديدة الدقة في الخبر ويرتب الفروق على التعريف والتنكير والتقديم والتأخير وغير ذلك من أمور النحو وهو مجرد مثال نسوقه لنبين كيف كان الشيخ عبد القاهر ينظر إلى النحو لا من تلك الزاوية الضيقة التي تهتم بالإعراب فحسب بل من زاوية أعم وأشمل فتحتوي المعنى وما يترتب على اختلاف الصورة في التركيب من اختلاف في المعنى.

(يتبع في العدد القادم)

---

[57] دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص: 87.

[58] الخصائص، ابن جني، 298/1.

المصادر والمراجع

1- **أبو الحسن بن الطراوة وأثره في النحو**، د/محمد إبراهيم البناء، تونس، ط: 1400هـ/1980م.

2- **أثر القراءات القرآنية في الدرس النحوي**، د/عفيف دمشقية، معهد الإنماء العربي، ط: 1، 1978م.

3- **إحياء النحو**، إبراهيم مصطفى، مصر، 1951م.

4- **أخبار النحويين البصريين**، السيرافي، تحق: الأستاذ عبد المنعم خفاجة وغيره، مطبعة الحلبي .

5- **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين السيوطي، بيروت: المكتبة الثقافية، 1973م.

6- **الإيضاح في علل النحو**، الزجاجي، تحق: د/مازن مبارك، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1974.

7- **الاقتراح في أصول النحو**، السيوطي، تحق: محمد حسن إسماعيل الشافعي بيروت: دار الكتب العلمية 1998/1418 ط: 1.

8- **البرهان في علوم القرآن**، الزركشي، تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم، 1958.

9- **البلغة في تاريخ أئمة اللغة**، محمد بن يعقوب الفيروزابادي تحق: محمد المصري (دمشق: م . وزارة الثقافة 1972/1392).

10- **التبيان في إعراب القرآن**، أبو البقاء العكبري، تحق: علي محمد البجاوي، إحياء الكتب العربية.

11-**التعريف بعلم اللغة**، دافيد كريسل، تر: د/حلمي خليل.

12- **التكملة**، أبو علي الفارسي، تحق: د/حسن شاذلي فرهود، ديوان المطبوعات الجامعية، 1984.

13- **الجامع لأحكام القرآن**، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، القاهرة: م. دار الكتب 1967/1387.

14- **الحجة في القراءات السبع**، ابن خالويه، تحق: د/عبد العال سالم مكرم بيروت: دار الشرق 1971.

15- **الحيوان** ، الجاحظ، تحق: عبد السلام هارون ، 1364هـ/1945

16- **الخصائص** ، ابن جني (أبو الفتح عثمان) ، تحق: محمد علي النجار، القاهرة: 1956/1952.

17- **الرماني النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه**، د/مازن المبارك ، دار الكتاب اللبناني ، 1974.

18- **الفهرست** ، ابن النديم، القاهرة ، 1348هـ .

19- **القراءات الشاذة وأثرها في الدراسات النحوية والأحكام الشرعية** ، ابن التواتي التواتي ، رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة الجزائر (مخطوط).

20- **القراءات القرآنية وأثرها في التفسير والأحكام**، د/محمد بازمول، ط: 1، 1417هـ/1996.

21- **الكتاب**، سيبويه، تحق: عبد السلام هارون، دار القلم والهيئة المصرية العامة للكتاب 1966م.

22- **الكنوز الذهبية في شرح وإعراب شواهد سيبويه النظرية**، حمدي علي مهدي، 17/1. وما بعدها.

23- **المزهر في علوم اللغة وأنواعها** ، جلال الدين السيوطي، تحق: فؤاد علي منصور، بيروت: دار الكتب العلمية 1992م ط: 1.

24- **تهذيب اللغة** ، الأزهري، تحقيق مجموعة من العلماء ، القاهرة.

25- **حجة القراءات** ، أبو زرعة عبد الرحمن (ابن زنجلة) تحق: د/ سعيد الأفغاني ، بيروت: مؤسسة الرسالة 1404هـ ط: 4.

26- **خزانة الأدب**، البغدادي، تحق: د/عبد السلام هارون، القاهرة: دار الكتاب العربي 1967/1387.

27- **دراسات في القرآن**، د/أحمد خليل، دار النهضة العربية، 1969م.

28- **دراسات في اللغة العربية وتاريخها**، الشيخ الخضر، المكتب الإسلامي ، ط: 2، هـ 1960/1380م.

29- **دراسات لأسلوب القرآن** ، عبد الخالق عضيمة ، القاهرة: دار الحديث، بدون تاريخ.

30- **دلائل الإعجاز**، عبد القاهر الجرجاني ، صحح أصله الشيخ العلامة محمد عبده ، مطبعة السعادة.

31- **رسالتان في اللغة** ، علي بن عيسى الرماني، تحق: إبراهيم السامرائي، دار الفكر، عمان، 1984.

32- **سيبويه إمام النحاة** ، على النجدي ناصف ، مصر، 1954.

33- **شرح المفصل** ، ابن يعيش ، عالم الكتب – بيروت ، مكتبة المتنبي – القاهرة ، بدون تاريخ.

34- **طبقات النحويين واللغويين** ، أبو بكر (الزبيدي) تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة/1954.

35- **علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة**، د/فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة ، 1970م.

36- **في أصل النحو**، د/سعيد الأفغاني، مطبعة جامعة دمشق، 1964/1383، ط: 2.

37- **قواعد التدبر الأمثل لكتاب عز وجل**، عبد الرحمن حسين حبنكة الميداني ، ط: 1، 1980/1400.

38- **كشاف اصطلاحات الفنون**، محمد علي التهانوي، بيروت: م . شركة خياط بدون تاريخ.

39- **مجالس العلماء، الزجاجي**، أبو القاسم الزجاجي، تحق: عبد السلام هارون، الكويت/1962.

40- **مجلة "اللسانيات"** العدد الرابع سنة 1974/1973.

41- **مجلّة الموقف الأدبي**، مقال للدكتور جعفر دكّ الباب، العدد: 117 يناير 1981.

42- **مشكل إعراب القرآن**، مكي بن أبي طالب، تحق : د/حاتم صالح الضامن، بيروت 1405هـ ط: 2.

43- **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، ابن الأنباري ، مصر، بدون تاريخ.